اللغة ليست كائنا مستقلا بذاته ...

ولكن أداة طيعة في أيدي أبنائها وتقدمها منوط بتقدمهم

الدكتور سليمان قطاية

حلب (سوريا)

ان انتشار لغة ما ، في اعتقادي ، يتعلق بانتشار حضارة الامة التي تتكلم تلك اللغة ، وعلاقتها وتأثيرها على بقية حضارات الامم .

فمنذ انتشرت الحضارة العربية عمت لغتها جزءا كبيرا من العالم القديم وتعلمها وكتب بها الاعاجم من كل جنس ولون . ولكن عندما جاءت عصور الانحطاط وتراجعت الحضارة انحطت اللغة معها ودالت دولتها .

تلك هي حال اللغات الاوربية **فانتشارها جزء لا يتجزأ من انتشار وتفوق الحضارة** الاوروبية واليوم نجد أمامنا مثلا واضحا لهذا : فالحضارة الاميركية تطغى على الحضارة الفرنسية فنلمس تراجعا لهذه امام تلك ، وما كتاب ايتياسبل « هل تتكلم **الانكلوفرنسية** » سوى مثل واضح على ذلك !

وعلى العكس عندما قام مصطفى كمال اتاتورك بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بغية تسهيل دراستها للاجانب ونشرها على نطاق واسع ، لم يصل الى هدفه لان الامة التي تتعلم التركية امة مستضعفة متخلفة .

وعندما ستصل الامة العربية الى درجة التفوق في التقدم العلمي والفكري فلسوف نرى الاجانب يقبلون على تعلمها والاخذ عنها كما فعلوا في السابق مهما كانت صعوبة اللغة وتعقيدها .

ولا أريد من قولي هذا ان التقدم الحضاري هو السبب الوحيد لانتشار اللغات ، بل ثمة اسباب اخرى لا تقل اهمية كالعلاقات السياسية والاقتصادية والجغرافية وصعوبة اللغة نفسها وقابليتها التعليمية فرغم تقدم اليابان والصين ، فلا تزال لغة تلك البلاد قليلة الانتشار ومن اسباب عدم انتشارها صعوبة تعلمها .

فانتشار اللغة العربية على نطاق عالمي واسع، اذن تتعلق مباشرة بمدى تقدم ابنائها في ميادين العلوم والفنون ومدى علاقاتهم بالامم الاخرى .

ولكن ثمة عوائق تقف في وجه الاجنبي الذي يود صادقا تعلم اللغة العربية ، منها :

1 — وجود لغة فصحى ، ولغات دارجة ، تجعل الاجنبي في حيرة لاختيار الفصحى أم الدارجة ، فاذا درس الاولى اصبح حبيس جدران المعاهد ، وصديقا مجدا للمتعلمين والمثقفين العرب ، وان درس الثانية بعد عن مصادر اللغة من كتب ومخطوطات .

2 — وحتى لو درس الفصحى فهو يدرس اللغة القديمة لغة القرآن والمعلقات (وهذا ما يفعله طلاب معهد اللغات الشرقية في باريس) وهي غير اللغة الفصحى الحديثة .

3 — مشكلة الخط العربي وعدم ضبطه ضبطا رقيقا من حيث اللفظ والاحرف الصوتية والتشكيل والحركات والاملاء ، وكثرة انواع الخطوط العربية أما صلاحية اللغة العربية للتدريس الجامعي فهي حقيقة لا جدال فيها، والاسباب التي تدعو البعض الى القول بعدم صلاحيتها : هي اما عدم الايمان باللغة العربية لجهلها وتأثير التغلغل الفكري الاستعماري فيه . أو لاسباب اخرى هي الرغبة في السرعة بنشر التعليم العالي وتأسيسه وسهولة تأمين الاطارات التقنية والكتب العلمية واعتقد ان هذه الاسباب هي التي دعت بعض الدول كتونس الى تدريس الطب بالفرنسية ، وهي التي تدعو اللجنة المشرفة على تأسيس كلية الطب في حلب الى الاعتماد على اللغة الانكليزية في التدريس .

وعلى كل حال فلا يمكن لنا ان نقول بعدم صلاحية اللغة العربية كلغة لان الحركة التي قامت

بها جامعة دمشق منذ عام 1919 حتى اليوم ، ورغم عجزها عن الوصول الى المستوى المطلوب ، فانها تجربة قاطعة .

واذا لم نصل الى ما يريده لها ابناء العروبة فالسبب هو ان دمشق وحدها لا تستطيع ان تتحمل عبئا ثقيلا كهذا .

ولا اعتقد ان اللغة العربية اضعف من اللغة الفنلدية او الفلامنكية او العبرية فى مسايرة العلوم الحديثة وخدمتها ؛ فاللغة ليست كائنا مستقلا بذاته بل هي اداة طيعة فى ايدي ابنائها ومدى تقدمها يتعلق بمدى ايمانهم بها واخلاصهم فى العمل على رفعة شأنها . اما الصعاب التي تعترض طريق الاساتذة فهي فى اعتقادي عائدة اما الى عدم كفاءة المقدم على الترجمة او البحث عن المصطلحات الدقيقة . فيقع فى اخطاء تجبر الاساتذة الآخرين على ايجاد مصطلحات اخرى، ثم تعمل الانانية والفردية عملها فاذا بنا فى كلية واحدة امام عدة اساتذة كل منهم يطلق اسما مختلفا لمسمى واحد !

او ان الدافع القومي المحلي يعمل عمله وهذا ما حدث مثلا اثناء الوحدة بين سوريا ومصر عندما اجتمع الفريقان لتوحيد المصطلحات العسكرية .

واما ان الخلاف السياسي المستحكم بين الدول العربية يمنع تبادل الآراء عن طريق النشرات والزيارات والمؤتمرات ، وخاصة يمنع تطبيق المقررات التي يتخذها العلماء والاساتذة بشأن اللغة العربية وتقدمها وثمة فريق من العلماء يغار على لغته لدرجة انه لا يقبل اية كلمة لم ترد على لسان العرب فى الجاهلية او فى العصر الوسيط ويفضل الكلمة الثقيلة المستحيلة الشيوع على الكلمة الغريبة السهلة التي دخلت اللغة وانتشرت على الالسن .

ورايي ان حل هذه المشكلات والعمل على انتشار اللغة العربية يتلخص فى النقاط التالية :

1 — تاليف لجان خاصة من كل بلد عربي وكل فرع علمي لاصدار معجم فى هذا الفرع ، شريطة ان يسحق كل عضو فى نفسه كل شعور اناني فردي او شعور قومي او عقلية قديمة متحجرة ؛ واضعين نصب اعينهم خدمة اللغة العربية وابنائها متطلعين الى لغة المستقبل **(اي لغة وسطى ما بين الفصحى والعامية)** لغة مرنة سهلة ذات اصطلاحات وتراكيب تنزلق بسهولة فى اللغة العلمية الجامعية اليومية ولو اضطررنا الى اخذ بعض الكلمات الاجنبية كما هي كقولنا « ريافت » بدلا من داء السكري لا ان يتطلعوا الى الماضي فقط ليفرضوا على ابناء المستقبل لغة قاسية متحجرة لم يعد فى استطاعتها ملاءمة العصر ومتطلباته الحاسمة السريعة الدقيقة .

2 — ان تطبق الدول العربية كلها هذه المصطلحات فى مدارسها ومعاهدها بكل جدية واخلاص

3 — القيام بدراسات لغوية لتبسيط قواعد النحو والصرف وتقريبها من قواعد اللغات الاجنبية كل لوحدها على غرار طرائق معهد غوته بالنسبة للغة الالمانية .

4 — تاسيس معاهد لتدريس اللغة العربية وآدابها فى كل عاصمة اجنبية حيث تتوفر الامكانيات اللازمة .

وان صعب تحقيق الامر عن طريق الحكومات فلا باس من ان تقوم بهذه الجهود المجامع اللغوية او الجامعات العلمية او حتى بعض الافراد المؤمنين بلغتهم وامكانياتها عن طريق الدعوات الفردية ، والاجتماعات الدورية ، وهذا اضعف الايمان .